الوظيفة الوطنية للتاريخ

د. بن داهـة عدة

جامعة معسكر

مقدمـة

من الصعب علينا أن ننسب أنفسنا إلى مدرسة جزائرية للتاريخ، فالمدرسة لها أسس ومبادئ نظرية يرتكز عليها المؤرخ المنتسب إليها في تدوينه للأحداث التاريخية وتفسيرها.

فنحن مازلنا نخضع في تفسيرنا للأحداث على ضوء ما توحي به المادة التاريخية المتوفرة لدينا غير مستندين إلى نظريات فلسفية أو قوانين[1]

وبالنسبة للجزائر فإن الميثاق الوطني يشكل المصدر والمرجع الأهم للأطر الثقافية الأساسية لتنظير المشكلات الاجتماعية[2]

وإن كانت هناك مدرسة جزائرية للتاريخ، فمن أين استمدت مصداقية عملها التاريخي ؟ وما هو أسلوبها في العمل ؟ ومن هم روادها وممثلوها ؟ وما هو اتجاهها ؟ وما هي الأسس السليمة والطرق الصالحة في تعاملها مع التاريخ بصفة عامة وتاريخ الجزائر بصفة خاصة؟

دراسة التاريخ الوطني

إن دراسة التاريخ كمادة مدرسية تعليمية لها وظائف عديدة ومتنوعة لا يمكن الإقلال من شأنها كغذاء روحي؛ والمعرفة التاريخية ليست غاية في حد ذاتها، وإنما وسيلة لتحقيق أهداف تربوية.

ولا شك أن دراسة التاريخ الوطني تلعب دورا جوهريا في تكوين الاتجاهات المرغوب فيها، كما أن التاريخ كمادة مدرسية يشترك مع مواد أخرى في تحقيق الأهداف مثل القدرة على التمييز بين الرأي والحقيقة، والتأكد من صدق المصادر، والقدرة على التفسير والتركيب ...

وبعبارة أخرى لا يمكن للتاريخ الوطني أن يؤدي وظيفته، ويحقق الأهداف الوطنية والقومية والإنسانية إلا إذا خضع لمعالجة وتحليل يعتمدان الطريقة المنهجية في البحث التاريخي، ويستندان إلى وقائع ثابتة لا على النظرة المسبقة التي تُخضع الأحداث إلى تفسير محدود لتخرج بنتائج مقصودة، ربما تصل إلى مستوى التزوير الواعي أو اللاواعي للظاهرة التاريخية[3].

فتدريس التاريخ الوطني في كل المجتمعات يرتبط بأهداف وغايات محددة ترمي إلى إحداث تغيير في سلوك أفراد المجتمع ومواقفهم.

وعلى المؤرخين تقع مسؤولية تحقيق هذه الأهداف التي لا تخرج عن السياسة العامة التي يسطرها ألساسة.

والتاريخ الوطني هو الذي يغرس فينا القيم الروحية والخلفية والإنسانية النبيلة التي كان يتحلى بها آباؤنا وأجدادنا من أمثال ماسينيسا ويوغرطة، وتاكفريناس، ... والأمير عبد القادر، والمقراني، وبن باديس ... ومجاهدي ثورة أول نوفمبر 1954؛ وهو الأمر الذي يجعل دارس التاريخ الوطني الجزائري يعتز بهذا البلد شعبا وأمة، وعلى

قناعة من أن فرنسا على سبيل المثال لم تغزو الجزائر بدعوى نشر الحضارة، كما جاء في الكتب المدرسية الفرنسية التي نجد فيها نزعة التمييز، والنظرة الاستعلائية والتفوق الحضاري للشعب الفرنسي وشعوب العالم الغربي، إلى حد تمجيد الاستعمار واعتباره أحد مقومات التحضر.

حدود ومسؤوليات المؤرخ الوطني الجزائري

المؤرخ الوطني الجزائري هو الذي تقوم دعائم شخصيته العلمية على الولاء للوطن والإخلاص لأهداف أمته، ويساهم في بناء وصنع الشخصية الوطنية الايجابية ذات الأثر الفعال في مجرى الحياة لتلاميذ المدارس وطلاب الجامعات، وله العزيمة القوية لدفع مجتمعه على تذوق تراثه التاريخي والاعتزاز به، وعليه تقع مسؤولية تقويم وتصحيح الفرضيات الشائعة والخاطئة الملصقة بتاريخ وطنه، كأن يرد بدقة ونزاهة وموضوعية على الكتابات الأجنبية، وفي مقدمتها الكتابات الفرنسية التي شوهت تاريخ وحقيقة الصراع بين المجتمعين الجزائري والأوروبي – على سبيل المثال– لتضمن النجاح في الحصول على براءة استيطان الجزائر واستعمارها، كما جاء على لسان منظري الاستعمار الفرنسي في الجزائر من أمثال « Prevost Paradol » والدكتور « Bodichon » و « Varin » و بـ « Charles Fourier »، وهذا في الوقت الذي ظهرت فيه أفكار فلسفية ليبرالية تنبذ الظلم وتدعو إلى التحرر، والدفاع عن حقوق الشعوب والأفراد من أمثال "بالزاك"، "فيكتور هيجو"، "ميشلي"، "دي لامارتين "... ولويس بلان [4] حيث تضمنت هذه الكتابات معلومات لا تستند على أسس تاريخية علمية واقعية منها على سبيل المثال لا الحصر:

1- وصفهم في الكتب المدرسية – للهجرات وللفتوحات العربية في شمال إفريقيا بالغزو حتى يتوهم القارئ أنه احتلال يهدف إلى نهب الخيرات والاستيلاء على الثروات، وليس فتح يهدف إلى تحرير هذه الأراضي، وإعلاء كلمة الله، ودفع الشر وجلب الخير لهذه البلاد، ونشر قيم العدالة والتسامح، ونبذ العصبية". ولو كان العرب الفاتحين ظالمين لما دخل البربر في الإسلام، وسموا أبناءهم بأسماء عربية، ولما انخرطوا في الجيش العربي الذي فتح الأندلس وجنوب فرنسا، ولم يشيروا في الكتابات المدرسية التاريخية الفرنسية لا من بعيد ولا من قريب ولو مرة واحدة أن المشاريع التي أنجزها الاستعمار الفرنسي في الجزائر قد تمت بسواعد الجزائريين وعلى حسابهم لصالح الكولون[5]

2- إغفالهم وإهمالهم عن قصد للدور الحضاري الذي لعبته الجزائر عبر التاريخ، وتثبيتهم للفرضية التي تؤكد الطابع القبلي للمجتمع الجزائري، وتخلفه الفكري وعدم قابليته للتعلم، بينما الواقع التاريخي يثبت أن الجزائر تواجدت بها كيانات سياسية[6]، وأنجبت علماء نبغوا في شتى أصناف العلوم والمعرفة[7].

3- قولهم بأن الاقتصاد الجزائري في العهد العثماني كان عماده القرصنة البحرية والسلب والنهب، وكأن لم يكن هناك نظام اقتصادي.

4- المبالغة في التمييز بين أفراد الشعب الجزائري الواحد بقولهم "العرب والبربر"

5- وصفهم الأمير عبد القادر بالمستسلم، وهو الذي بادرهم بالهجوم، والذي يهاجم لا يمكنه أن يستسلم.

6- نعتهم للمقاومين وللثوار والمجاهدين الجزائريين بكل صفات التعسف والظلم والعنف، وتسميتهم بالخارجين عن القانون والمتردين، ولم يذكروا مرة أنهم كانوا يخوضون حربا ضد الظلم، وضد الاستعمار.

7- تنكرهم لفكرة أن تحرير فرنسا من الاحتلال الألماني أثناء الحرب العالمية الثانية انطلق من شمال إفريقيا قبل نورماندي ...

8- تقديمهم لتفسير مشوه لثورة أول نوفمبر 1954، فحرفوا وزوّروا بأن الثورة قام بها أشخاص متذمرون، بينما الثورة خاضها شعب بأكمله عانى من منكرات الاستعمار وجرائمه، وسموا المجاهدين باللصوص، والخارجين عن القانون، وقطاع الطرق والفلاقة... وترجمت هذه الألفاظ إلى اللغة العربية حتى شاعت في أوساط المثقفين، ودخلت الكتب والمحاضرات الجامعية.

وما يؤسف له أن بعض مؤرخينا نقل عن الكتاب الفرنسيين والأوربيين شائعاتهم وأكاذيبهم عن التاريخ الجزائري الذي انتقصوا فيه من عمل الجزائريين وطمسوا فضائلهم، وتنكروا لمساهمتهم في بناء التراث الحضاري الإنساني وإضاءة درب الإنسانية.

وعليه أصبح من أوجب واجبات المؤرخ الوطني الجزائري:

1- التجرد من النظرة الضيقة المتحيزة للعرب أو البربر الذين شد الإسلام اللحمة فيما بينهم، فأصبحوا يؤلفون وحدة اجتماعية لا تنفصم عراها، والابتعاد ما أمكن عن الكتابة التاريخية التي توافق هواه وعقيدته، وتتلاءم مع أذواقه وميوله السياسية والاجتماعية، أو يروج لنظرية تاريخية ما.

2- سلوك منهج تاريخي مستمد من النظرة الذاتية للأحداث ومن بئة المجتمع الجزائري وثقافته وأسلوب تفكيره[8]

3- الدفاع عن الهوية الجزائرية الأمازيغية – العربية – الإسلامية، وبلورة معاييرها الثقافية واللغوية والفكرية والبيئية.

4- تجنب الأحكام القطعية على الأشخاص والجماعات دون روية أو دليل ثبوتي.

5- تحاشي الوقوع في الرؤى والتفاسير العنصرية لأحداث التاريخ الوطني والمغالاة في مدح جهات وذم أخرى من القطر الجزائري.

6- تحاشي الصورة التاريخية القومية التي تتسم بالتحيز والاستعلاء والمغالاة في الوطنية (الشوفينية).

أهداف التاريخ الوطني

التاريخ إلى جانب كونه مادة علمية، فهو طريقة ووسيلة ونشاط يراد منه تحقيق أهداف معينة، وكأننا بهذه الأهداف نجيب عن السؤال الذي نسمعه باستمرار، ما فائدة التاريخ ؟

ومن أهداف التاريخ الوطني:

1- تكوين مواطن يحس بقوة اللحمة التي تربطه ببلاده وشعبه؛ المواطن الذي يتذوق تراثه الحضاري ويعتز به (أي مواطنا مخلصا لأمته وموواليا لها)

وفي هذا الصدد على المؤرخ تقع مسؤولية تبصير مواطنيه بقضاياهم المصيرية والأزمات المرتقبة، وأن يقف إلى جانب أمة منذرا ومبشرا ومشجعا[9]

2- المساهمة في تكوين الشخصية الإيجابية للمواطن بتدريس التاريخ بطرق لا تقف عند سرد الأحداث والتواريخ كما أشير من قبل بل يتعداها إلى توضيح العلل والأسباب والمغزى الحقيقي لكل منها.

3- نقل المعايير والقيم والعادات الحسنة والخبرات، ومن ذلك مثلا:

- أن الوحدة عامل قوة سياسية واقتصادية.
- التكافل والتضامن الاجتماعي.
- سر نجاح الثورة يكمن في سريتها ...

وبمثل هذه المعايير يمكن قياس الحاضر والحكم عليه.

ولا يمكن للتاريخ أن يحقق أهدافه إلا بإعطائه المكانة التي يستحقها ضمن المناهج الدراسية: توقيتا، ومعاملا، وتجهيزا، وتوثيقا. ومن ذلك مثلا: إدراج نصوص ذات طابع تاريخي وطني في مادة الأدب العربي، واللغات الأجنبية التي تدرس في بلادنا، والابتعاد عن إجهاد التلميذ والطالب، بتحفيظه الأحداث والتواريخ بما لا يعود عليه بالنفع، وإعطاء العامل الاقتصادي والاجتماعي (الحضاري) حقه في التاريخ الوطني، وإظهار الأخطاء التي وقع فيها أسلافنا وحكامنا، والقيام برحلات دراسية علمية إجبارية إلى المتاحف والمواقع الأثرية.

خاتمة

إن دراسة التاريخ الوطني تبدأ بزيارة المعالم الأثرية المحلية حيث توجد الآثار والمخلفات التاريخية، نقوم بهذا إن كنا نريد لجيلنا الصاعد أن يفقه التاريخ ويتذوق تراثه الحضاري ويعتز به.

كما أنه لابد من قراءة جديدة للنصوص التاريخية الأجنبية عن الجزائر، ووضع برامج مدرسية ثورية تؤسس محتوياتها لمدرسة تاريخية وطنية جزائرية.

ونقول للجميع أن مادة التاريخ تنفرد بأهمية خاصة لكونها تساهم في عملية توجيه وتوعية وتعبئة الأجيال الجديدة، وأن تاريخ الجزائر له من القيمة ما يؤكد إمكانية الشعوب الأخرى من الاستفادة من دروسه وعبره.

الهوامش

1– يراجع: طريف الخالدي، بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه، ط 01، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1982 (الباب الرابع: المدارس التاريخية المعاصرة، ص55–67).

2– جبهة التحرير الوطني، الميثاق الوطني 1976، ص23–28.

جبهة التحرير الوطني، الميثاق الوطني 1986 (الأسس التاريخية للمجتمع الجزائري، ص10–26).

3– فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، وفكر القرن العشرين، دراسات نقدية في تفسير التاريخ، ط03، القاهرة 1406هـ/ 1985م، ص8–9.

4- يراجع .Ferhat Abbas, la nuit coloniale, rené Julliart , Paris 1962 , p58 à 62

5- Le Monde contemporain, Classes Terminales, collection d'Histoire Hatier, Paris 6ème, 1962, p512.

Aussi : Notre histoire, Cours moyen, Paris (S.D) p31.

6– جبهة التحرير الوطني، الميثاق الوطني 1986، ص10–19.

7– أبو القاسم سعد الله، موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي (9 مجلدات)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 .

8– فاروق عمر، المرجع السابق، ص25.

9- نفسه ص07**.**